وظائف العائلة

بقلم : الشيخ سليمان المدلج

قلنا ان المجتمع في الوقت الحاضر قد اغنى الفرد عن العائلة في اكثر الحاجات المادية والجنسية ، فلم يعد الانسان في حاجة الى العائلة لتوفر له غرفة النوم ولا اطباق الطعام والدواء والتمريض او تعلمه مهنة من المهن او تشبع رغبته الجنسية ، كل هذه الامور يتولاها المجتمع في الوقت الحاضر ، ولان نظرة الناس الى الحياة الجنسية كانت ولا تزال تتمتع بنوع من القدسية وتحاط بسياج من الدين والاخلاق ، الا انها في طريقها الى فقدان هذه المكانة السامية في ذهن الانسان ، فالمرأة قد وافقت على الخروج من حصنها المنيع لتركض وراء الرجل في الشارع والسوق والمصانع والدوائر ، فقد انطلت عليها خدعة الرجل بأن مثل هذا الاجراء يمثل التقدمية ويعطى المرأة الحرية ، وهي بسبب ذلك سوف تفقد قدسيتها في نفس الرجل ولن تكون في مكانة ارفع ، واذا فقدت المرأة قدسيتها فان الحياة الجنسية تفقد اخلاقيتها ، وتصبح ممارسة الجنس امرا ماديا قابلا للاتجار والاهداء بدون مراعاة للقواعد الخلقية والدينية ، ويدل على التدني لهذا المستوى ازدياد الاطفال المجهولي الاباء يوما بعد يوم .

ان المبررات المادية لوجود العائلة لمؤسسة من المؤسسات الاجتماعية عند بني الانسان قد زالت والمبررات الخلقية في طريقها الى الزوال ، فهل ستظل العائلة قائمة في المستقبل ام ستنهار وتفنى نهائيا ؟ لو اردت ان اتبع الديالكتيك في بحثي لحكمت بأن العائلة في طريقها الى الفناء اذ لا معنى لوجودها بعد أن تتطور وسائل الانتاج في المجتمع . ولكنني لا ارى ذلك صائبا .. بل اعتقد بأن العائلة ستحافظ على وجودها . مهما تغيرت وسائل الانتاج الاقتصادي ومهما تطورت الحياة الاجتماعية وتبدلت الحضارات والاعراف او حتى الاديان والنظريات الخلقية .

فالحياة العائلية في واقعها لا تقوم على هذه المبررات المادية والخلقية وحسب ، بل هناك مبرران اساسيان هما اللذان اوجدا العائلة وهما اللذان يجعلانها قادرة على البقاء كمؤسسة اجتماعين لها خطرها . هذان السببان هما مبرران نفسانيان لا ينتهيان من نفس البشر وهما الرغبة في الاطمئنان والرغبة في الانسال ..

الرغبة في الاطمئنان :

فالانسان لا يرغب في الناحية الجنسية بسبب الدفع البيلوجي فقط ، وليس الاتصال الجنسي هو حاجة جسمية وحسب ولكنه حاجة نفسية اكثر من ذلك ، ويدل على ذلك العنة النفسية ، وهي العنة الاكثر شيوعا واصعب علاجا . فالانسان لا يستطيع الاتصال الجنسي مع اي فرد كان ، بل لابد من المود المتبادل والثقة حتى يتمكن من القيام بواجبه في هذا الصدد ، وربما يكون الرجل في حاجة الى ذلك اكثر من المرأة وان كانت تشاركه في انها ايضا لا تصل الى قمة اللذة الا مع زوج ترغب فيه وتطمئن الى ثقته ومودته ، فحاجة الانسان الى الاطمئنان بوجود شريك يبادله مشاعر الحب والولاء والاخلاص هو الذي يدفع الى التضحية بقسم كبير من حريته واستقلال فيرضى بالاقتران مع شخص اخر يلتزم تجاهه بكثير من الواجبات . (**وهو الذي جعل لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة**) .

الرغبة في الانسال :

والرغبة في الانسال لدى الانسان رغبة اصيلة وشديدة فهو بذلك يشعر انه يشارك في استمرار بقاء نوعه ، فالحياة الخالية من دون نسل لهي في نظره حياة خالية من المعنى ، حياة عذاب وقلق مستمر ، بل ان هدف الزواج الاول هو الانجاب ولن يهدأ الزوجين بال حتى يريا ثمرة اقترانهما تملأ البيت بالضجيج ، واعتقد اعتقادا جازما بأن الناس سوف يظلون ينجبون الاطفال وان تمكن العلماء من ايجاد اطفال صناعيين بكميات تجارية ، ذلك أن شعور الانسان بالطفل الذي يولد منه ليس كشعوره بالاطفل المتبنى ، ولم يخترع الانسان مفهوم التبني الا للتعويض عما يحس من نقص في قرارة نفسه عندما تخلو حياته من الاطفال ويتأكد بأنه غير قادر على الانجاب مطلقا .

فالابن بالنسبة الى ابويه انما هو استمرار لوجودهما فكأن بقاءه يخفف عنهما وطأة الشعور بأن للحياة حدا لابد أن ينتهي بالموت ولذلك يطلقون على النسل (الخلف) بمعنى الذي يخلف أو الذكر بمعنى البقاء . فما دام للانسان ذرية فهو موجود ان لم يكن بعينه فبشمائله وبذكره .. **(يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا فاتقوا الله الذي تساءلون به والارحام) .**

هذان السببان هما المبرران الرئيسيان لوجود العائلة حسب المفاهيم القرآنية ، ولذلك لم يشر القرآن الى أي من المبررات المادية لعلم الله انها ليست اسبابا رئيسية لوجود العائلة ولا لبقائها ، ولذلك لم تجعل شريعة ضمن الحقوق والواجبات المتبادلين واجب المطبخ أو الغسل أو التمريض ضمن حقوق الزوجين وذلك لان المجتمعات مختلفة في طبيعتها وفي تطورها الحضاري والمادي . وانما اشار الى هذين السببين وفي ايات متعددة الى أهميتها في بقاء العائلة واستمرار وجودها ، وان على الناس ان يرفضوا اي فكرة قد تؤدي الى ازالتهما من النفس البشرية .

فليس ثمة من فكرة أو دعوة اخطر على مستقبل العائلة من دعوة الحرية الجنسية والدعوة الى تحديد النسل .

فالدعوة الى الحرية الجنسية والتي ابتدأت القوى المعادية للانسانية تتبناها وتنشرها بكافة الوسائل تعمل على ازالة الثقة المتبادلة بين الزوجين فعندما يشعر الرجل بأن قرينته تخونه وتباشر العملين الجنسية مع رجل اخر تزول ثقته منها ولا يبقى له اطمئنان يسكن اليه . والمرأة عندما تعلم بأن شريكها يخونها مع امرأة اخرى بدون رباط معترف به شرعا ومجتمعا فانها تعيش في جحيم من المشاعر النفسية فتزول بذلك ثقتها وينهب اطمئنانها . فازدياد الحالات العصابية لا يرجع الى التواحي الاقتصادية والمضادات الاجتماعية بقدر ما يعود الى الحياة العائلية . وازدياد نسبة الطلاق في العالم ككل وفي البلاد الاسلامية بصورة خاصة انما هو نتيجة ذهاب الثقة المتبادلة بين الزوجين بسبب الخروج على الاخلاق .

اما الدعوة الى تحديد النسل فهو دعوة مضادة للفطرة العاملة في هذا الكون ، ونظرا لتبني المؤسسات العالمية لهذه الدعوة صراحة وبدون حياء فلابد من الكلام عنها تفصيلا وان كان في ذلك خروج عن نطاق بحث العائلة اذ لابد له من اتصال به .